

بقلم
رفيفة الطبيعة

قصة غيب الإدراك قصيرة

« يا الهي .. خذ حياتي .. لاني لست افضل من آبائي .. »

المنفى :

اية فكرة يمكن ان تستأصل عذاب الاستمرار ؟ اية تفاهة متبقية للانقاذ .. لتغيير معنى نهار بطيء يقظته عشر سنوات .. او ليل ارقه عقد زمن لا موت داخله .. حوله .. (فالوت لا يعاش) .. الا ان انتظار النساء عبء مضم .. ان تنتظر امرأة الم رقيق يطوك بلا رحمة ، يعصر الاضلع .. يذيب شجاعة الصبر شوقهن المسافر عبر الكواكب اللامعة في تعاقب الضدين .. : الخط المتين الواصل بين عقاب الله وتسامحه على الارض .. امل العودة اذن؟؟ او السعي الى هوة الحقد المتأججة .. لتكن عودة الروح .. ولينشق دم هذا الوجه المحكوم بالنفى . عساه يتمرد على ملامحه .. محنته .. سجن عمره .. لتطمس صورته .. اما يكفي ان في الروح قبسا من وهم الخلود؟! *

العودة :

الرياح الباردة تعصف بالاشجار العارية. بالاوراق الممزقة. بالانسجة الفارغة من دفئها حول الاجسام .. الامطار والوحل ، الاقدام المتقلصة في مخابئها .. غربة مفزعة ما جدّ على ليل هذا البلد .. لعودة الابناء صوت غامر .. رعشة حلم اخضر يلوح انه بمنطق القهر قد ذبل واجتث .. هذا الفناء البطيء علامة حتمية لاستكانة الحياة في ظل الانقراض المتعفن : غلبة هائلة لظلمة الحقد .. لامتناس جشع مستنزف بالاضواء الزائفة المعلقة بقمة حثيثة الانهيار .. (الموت لا يعاش) .. بل يعاش اليوم فقد اصبح للموت اكثر من واجهة حضارية .. معنى متعدد .. تخطيط .. وللموت الجماعي بريق غريب زيفه : يسبق الانطفاء ... الاحساس به هنا .. مع كل خطوة يتضاعف . الافتقار الكلي الى الخلق .. الى القوة الكافية لاعادة الحرارة الى اوصال اليوم المهدور . تاريخ الغد المهترى . هو ما يسجله اليوم .. كذب على الجيل .. شخير النفوس الجائعة الى حد فظيع هو ما تحفل به الدور .. وتنبئ به النوافذ .. فما عاد في هذا البلد طعام يكفي .. يقيم اود روح عظيمة واحدة ..

اي (سيتيا) الحبيبة .. زادك عودتي . خطواتي

الرياح الباردة تعصف بالانتظار : بالرؤوس الجوابية للصقيع .. بالاعين المغلقة على فزع الاشياء .. بالصدور المحترقة برغباتها المفتقرة الى منير خارجي .. حصاد سنوات الصمت الوحشي : القابلية السلبية .. وكل هذه الفوضى الصامتة تطوح بالنفس المفردة الى محيطات الضجر فالقسوة .. لكن القسوة نشوة الانسان المتواطىء مع الحياة .. (تلك المحاكمة اللينشيية الفوغائية .. الجماعة المتواطئة المهيمنة ضد الفرد المصلوب بمشروعية تطلعاته .. التهمة المعكوسة والحكم الفوغائي والتنفيذ الفوري ..) . المنفى : سقوط لا نهائي خارج دائرية لغز الجاذبية البشرية المدمرة : حياة اللائحين الى تبرير الموقف اللامتتظر .. كبسوة الانسان وارثه المفرع : (الخيانة) !

الذي ما كان ممكنا تأمله في فترة الصخب - قبل عشر سنوات خلال التحرك اللولبي داخل البذلة والرتبة العسكرية : تذبذب المحيطين بدائرة القيادة .. خور الانفس .. انحطاط الوازع القومي المشترك .. ازاء المخطط كله .. المعوض المنتظر عن جهل تكالب .. وجوع تفشى . وفقر اذل الجباه الاصيلة المكابرة . مسح بها نعال سماسرة النفوذ . قناصي اللحظات السلطوية في المزايدات .. لم يكن مخططا لثورة مغرية .. تسبقها ابواقها المعلنه . ان هو الا ذاك التطلع المتطور للحياة .. الذي يختم خارج الزمن المدود والمكان المحدد .. فمعنى الثورة المشكلة للعالم من جديد انما يكمن خارج العالم قبل لحظة البدء . وفجأة . في خساسة ملساء نادرة : ارتطم شيء بالقعر المظلم . ركن من المخطط في كمين الانسان .. في ضعفه وجشعه : خيانتة البشعة .. الموقف المضاد عن جبن فحسب .. سوس الازمنة القديم .. او طمانينة الخالق على المصير المتارجح لمخلوقه في مهيب ريحه المتقلبة ضده في اي زمن .. في كل موقع ..

بعض من كل : هذا المنفى .. جزء من ثمن فادح : التطلع الى حرية مسؤولة ينكمش تحت عبئها الاذئاب .. انما فزع الخائرين قيادة انفسهم ..

الحذرة المورقة في الشارع المقفر . فلتترن دقات هذا القلب الوثاب .. وليفسح ظلام الليلة المبللة طريقا قديما الى البيت ذي الحديقة الاخيرة في الترتيب .. مهد حقيقة خنقوها دون ادراك لاصل المأساة .. في نافذتها تلك صفد الزمن تطلعاتي واحلامها - في المطر وسط زحمة الافئدة العمياء : كان الرحيل .. وها هي العودة : المطر والوحدة . زحمة الحزن وحدها باقية .. قوية ، ان موتها في نورها : شعلة السعادة .. لكم هي قصيرة . خادعة خلف نافذتها المصباح .. في المرآة وجهها .. ذكرى رجل كنته لها في الركن الاثير المتوهج والاخضر الابكم طيرها يسكن الزاوية المقابلة .. الصورة المشدودة الى الجدار المغطى بهواياتها : البذلة والتربة الخطيرتان : اطار الماضي اترها غطته بقماش اسود شفاف .. ؟

المطر .. المطر يا ابن الرياح .. دمعها انت .. فلتطهر هذا الجلد الموسوم ببلادة المنفى . وجراح الوجه الغريب في وطنه .. كيف تنال من التهاب الجسد العائد بأمل اللقاء انهار الصقيع ؟ احضن يمانها .. هل احضنها ؟ ترتعش .. ينطفئ المصباح .. سينطفئ .. فلغتنا ان نضيء وحشة الليالي الموزعة دهرا بين المنفيين ..

وحشة الشارع المقفر تنهزم .. صدى خطوات كتلة متحركة .. نجمتها السلطوية تحرق فراغا صغيرا حولها .. الخطوات الموزونة القوية الواثقة تصفني : شوقي والليل ولهفة السنين .. اعرفها - لرجل واحد هذه الخطى المستفزة لحلمي - بكسر الحاء - .. لا بيت سواه في نهاية الشارع .. بيتها .. حديقتها ؟ فهل هو « الاخر » ؟

★ ★ ★

- سيتيا .. ايتها الحبيبة .. !

- ت .. تليس !!

- رغم تنكري ؟ ايتها المخلصة ..

- ما به وجهك قد تشوه ؟

- .. فذاك .. خلقة تافهة لا تمنع عودتي اليك .. ان

جمال روحي كما تعهدين ..

- تخيفني حقا . ما الحدث ؟

- همسك فحسب . قد تكون مراقبين .. وجهتي

منفذ الجهة الخلفية من الدار ..

- لكن كيف .. انتظر .. كيف عدت ؟

- بعد عقد من الزمن المنسي هناك : لوتخلى العالم كله

عن معناه . فسأظل متمسكا بك .. لكم عبدني نداؤك

الخفي في عزلة الليالي ..

- فررت اذن ؟

- افتحي .. قد يولد الواحد منا وحيدا . لكنه يمتلك

بعد ذلك من الارادة ما يفرض معه ان يموت كذلك ..

- ما كان ينبغي ان تغامر ..

- ما كان ينبغي ان اضيع حقيقتي اكثر مما فعلت ..
والان دعيني امر من هذا المنفذ . فقد غسلني المطر ..
- تخطيك هذه العتبة ليس له من معنى الا الموت ..
- الموت ؟! لا تهتمي : هو هدية الاعداء لنا . والاصدقاء
على السواء .. لكن . اهو خوف عليّ ام تهديد لي ؟ وهل
حفا رأيتة يفادر حديقتك الليلة ؟
- من ؟
- رايت النجمة المنتزعة مني على صدره .. (الاخر) .
- غريمك ! فلم تسألني ؟
- يحتل مكاني في الواجهتين ولا سؤال ؟ خيانة
مزدوجة : اجهض مشروع تطلمي . ويفتصب اليوم في
البيت ركني .. اية ندالة ؟
- يحميني .. انت تدرك حاجتي الى العيش بعدك ..
- امن ذكراي تحتمين به ؟ انا الذي اوقد الجذوة في
النفوس . وزعزع خرافة الكرسي المنخور ودق ناقوس
الحياة القادمة في اسماع النائمين عن حقوقهم ؟ امن
ذكرى الاسد تحتمين بذاك الجرو التابع الاجير ؟ من
باع روحه للشر ؟
- هو فارس اليوم .. فما وضعك هنا ؟
- يا لها مرارة الواقع .. فهل اعترف حقا بانسي
مجبر على الاختفاء خلف جدرانك ؟ لكل زعيم خلية .
وانت وسيلتي لاشعار خيلتي بعودتي الى الحياة ثانية ..
ثقل بالفعل هذا العبء على عاتقك بعد الان ..
- جدا .. الى حد ارفضه معه منذ الآن .
- اترفضين ايصال شرايين الدم الى قلبي يا سيتيا !
- داري تضيق بالمتأمرين ..
- لكن من هم اولك المتأمرين ؟ نحن الاهل ..
الاصل ، وهم النسخة الرديئة للاختلاس ان للوطن مولدا
واحدا .. لا يكون الا على ايدي رجاله .
- لا لا فائدة .. من الاسلام الا تدعني ارى وجهك
البشع بعد الآن .
- نصفك يا سيتيا .. زوجك ..
- زوجي حوكم في (فلورنسا) ونفي الى (سارازانا)
مدى حياته . واصيب بحمي فتوفي وقبل وفاته بيوم كتب
لي : (اني احيا بلا امل ان اعود ثانية يا (ا) (سيتيا) ..
- فلورنسا ؟ سارازانا ؟ لكنه شيء ما حدث قط ..
ما حدث . ربما يحبل به المستقبل الممعن في الغموض
.. (سيتيا) . كيف تحجب عنك اللحظة الزائفة حقيقة
الفد الكبيرة ؟
- اذا كنت تعتقد بعدم وجود نظام عادل في البلد .

فيجب ان تواجهه ما يعنيه ذلك . لانه - في هذه الحال - لا بد ان تكون أنت نواة النظام (البديل) او المنتظر في الحلم فحسب . وأنا امرأة لم تراهن يوما على غير الحقائق ..

- كل الحقيقة انا .

- لتوافر الحقائق شروط .. هل تفهم ؟

- شروط في بيتي ؟ في ظرفي؟!!

- محكوم هارب او غريب هاجم . اي التهمتين يناسبك ؟

- يا الهي .. سيتيا .. لا . انما انت هي : (ليلث) . قد جعلت منك الاسطورة نصفا لآدم التمس قبل التقائه بالنصف الحقيقي .. نسلك الشياطين عبر الهواء والماء .. على الارض تجوب العالم .. آفة البشر .. وساحرة الابطال الشريرة .. رحمتك يا الهي : والتمن يا سليلة اللعنة الابدية ؟

- انقيادك للآخر ..

- انا ؟ متى كان الملائكة قرابين الشياطين ؟

- شراء رضائه يعني كسب راحتي .

- راحتك ؟ وحولك كل هذا العالم المشرد في ارضه؟ الجائع بخزه ؟ يا شجرة الحنق . يا شقاء آدم القديم الذي كتب على جباه البشر .. ما في المخطوطة المقدسة الا الحق (اولئك الذين يرفضون ان يميزوا . ليسوا الا امواتا » . فلتتعفن بوتقة هذا الوعي المرهق .. لتمتلك الهياكل المنخورة الاعنة . ولتخفت الاصوات . كل الاصوات وتقبل دونما طمع في آذان تعي .. اي (تيلس) الوحيد : (تطلع الى الامام في غير مبالاة دون ان تفكر في جنسي ثمار اعمالك « (٢) .

العبور :

الرياح الباردة تعصف بالانفس الخائرة .. وكما تتدهور الحضارات لتخلي العباقرة عنها . تميد بالاطوان ارضيتها المنخورة لاغراق الزعماء في صمت (القمة) الذي تمسي فيه انفسهم اكثر تفسحا وضعفا .. ان التقهقر المرتد يمسح كل اثر للزعامة .. بل يدينها .. ذلك السلام النفعي الذي لا يفقره انسان حقيقي لنفسه عند اليقظة .. والمفر ؟ المحدود خارجها انا منبوذ .. داخلها محذوف ..

والمنفى خيانة للروح المتوثبة .. لكن سخونة الموت الفوري .. الموت حالة تعاش اذا اصبحت ارادة الموت : (الاختيار اللاعشوائي) تماما كارادة الحياة .. حتى في اسوأ المواقف لا تنهزم اذ نرفض الوصاية .. ان هي الا عملية داخلية رقيقة .. بالغة الدقة والقصر . ان نحن ابعدنا الوعي الذاتي المرهف خلالها : .. العبور بوثة متزنة ونلقي في وجوه الخائرين في سجن انفسهم والحياة المضللة باختيارنا الاخير . وبجزمنا انفي عنه سلبيته .. لقد افترضت دائما في المتقدمين امتلاكهم لحرية ارواحهم حتى داخل اسوار الخيانة المطبقة فجأة كالصاعقة .. او الزاحفة كالوباء المتفشي ..

ان التبعية العمياء للآخرين : خيانة .. عيون زوجتي .. عذري لها انذل شكل تتخذه خيانتني لواجبي .. تردي في العبور .. في التلويح بزهرة « اللوتس » الخالدة - رمز اللانهاية - خلال تباعدي عن شخير النيام على جانب واحد طيلة حياتهم - غالبا هو خيانة لاجيال قد تحبط تطلعاتها بسبب نهايتي التافهة : لو انقذت للآخر ضمانا لراحتي وراحتها .. في كنفها .. في بؤرة نظامها المتكالب .. سيتيا .. اي ليلث الشريرة المطلقة السراح .. عيبي فسادا في المخدع .. في البيت والمدينة ، الارض والنفوس حركت العقيم .. القديم . والى الابد لن تستعيدي روحا حقيقية واحدة ..

استل من ثوبه خنجره الصغير الاعم .. صرخت (سيتيا) فزعا اذ دفع بها بعيدا عنه متخطيا سجاج الحديقة الى فناء البيت :

- ايها المأفون .. لا مفر لك من تسليم نفسك ..

- يا الهي .. خذ حياتي .. لاني لست افضل من آبائي (٣) ..

... وامتلات ارضية بيت (سيتيا) بدماء (تيلس) الغزيرة .. وبقيت روحه (الاسطورة) تسكن - على التوالي - بيوت كل الشهداء القتالين الى اليوم ..

هوامش :

- ١ - للشاعر الايطالي المنفي ج. كافا لكاتني .
- ٢ - العبارة لكريشنا (أحد الالهة الهندوكية القديمة)
- ٣ - ل. باركر .

